في عقل الألماني المجنون

الشمس في ذلك المتحف لمبة ضخمة يتدلى منها ديك يصيح

هالة كوثراني
hala@lahamag.com

منذ ٣٤ عاماً اكتشفتْ امرأة أشبهها ما اكتشفتُه أنا في الأعوام الأخيرة. كبرت أخيراً وعرفت أن لقائي بها في أمسية خريفية كان مجرّد حلم. منذ ٣٤ عاماً كتبت امرأة تشبهني عن أصابع لوّنت وجه بيروت وعن البحر المظلوم فيها، عن لونه الذي تغيّر ورائحته ووظيفته أيضاً.
أصبحت في الثلاثين. أستطيع الآن أن أحكي عن امرأة ثلاثينية دون أن أحس بأنني أنسج قصة امرأة غيري. أستطيع أن أصف سمكة ما زالت منذ ثلاثين عاماً في قليل من الماء... هكذا تضيق مساحة الحياة في زاوية من قلبي. ٣٤ عاماً تفصلني عن امرأة مثلي لا تحب الألوان، لكنها ترسم لوحات ملوّنة على أظفارها وتطير بسهولة من مدينة إلى أخرى. وهي لا تنتظر حرباً جديدة كي ترسم لها أيامها. هي أكثر حرية مني وتستطيع أيضاً أن تكون أكثر رجولة رغم شكلها الأنثوي الجميل الذي يتحدى أعواماً ثلاثة وأربعين تفصل بين يومي وولادتنا.
رغم الأعوام الثلاثة والأربعين، صحبتني المرأة التي أشبهها ذلك المساء الخريفي إلى متحف الألماني المجنون حيث تركتني وهربت. خفتُ بين الجماجم وإعلانات الثورة على السلام الاجتماعي المركّب وصور الأشياء المنتهية، دراجات الأطفال الهوائية التي قضمها الصدأ ولُعَب الفتيات الصغيرات المحروقة وكنزات قديمة من شتاء قديم لن يعود.
قادتني المرأة التي أشبهها إلى متحف متاهة لم أعرف الخروج منه. ضعت بين الممرات والأزقة التي تخنقها جدران بيضاء جداً. وتهت في مفاجآت المتحف المخيفة كأنني في رحلة إلى دهاليز الحياة اليومية في لبنان. لا بد أن امرأتي تلك قصدت أن ترعبني وأن تتركني وحدي لأكتشف طريقي في عقل رجل مبدع مجنون وثائر ودقيق جداً في ثورته. وحدها قصة الحب بين الفنان الألماني المجنون وزوجته التي انتحرت، أعادت إليّ التوازن والشعور بالدفء الذي غاب عني ما إن غابت شمس الخارج الحقيقية. والشمس في الداخل، في المتحف، لمبة ضخمة يتدلى منها ديك يصيح ومنه تتدلّى نصف دجاجة غاضبة. كم حدّثتني المرأة التي أشبهها عن أهمية رحلتي إلى المتحف، إلى عقل فنان عاشت هي معه قصة حب جميلة. وجدتُني في الخارج. لم أعرف كيف خرجت من المتحف. كأنني أدافع عن حياتي، عن حقّي في أن أتنفس وأحافظ على سلامة عقلي. كانت المرأة التي أشبهها تنتظرني تحت شجرة ضخمة تكاد إحدى بوابات المتحف أن تتكئ إليها. "عرفتِ الخروج، لم أخف عليك وانتظرت ولادتك الجديدة. هل أعجبك جنون حبيبي؟ نستطيع الآن أن نكمل طوافنا في أوروبا، أن نغادر قطاراً ونسكن آخر ونطمئن عن أحبائنا بين محطة وأخرى. وربما أتركك هنا لتكتشفي النسخ العديدة من اللون الرمادي، القلوب الرمادية والمباني الرمادية والسماء الرمادية والكلمات الرمادية في نصوص رمادية. أنا اكتشفت سعادتي حين اكتشفت اللون الرمادي، وأريد الآن أن أوفر عليك آلاماً رمادية في طريقك نحو السعادة والرضا عن النفس".
خلال رحلتي معها إلى بعض بلدان أوروبا، لا أستمع إليها أحياناً، أنشغل بالمشهد. وهاتفي يصوّر ضياعي قبالة تمثال رمادي لرودان وفي مواجهة غياب اللون الذهبي الذي يطمس التفاصيل، لكننا نحبه في ذلك الجزء من العالم حيث ولدت رغماً عني. وقلت لها إننا، حيث ولدت، نلهث بحثاً عن الذهبي، ننسى متع الحياة بحثاً عنه، وتحت شمس ذهبية يمرّ عمرنا دون أن نقدّره أو نصنع به ما ولدنا لأجله أو نفهم كيف بدأ وكيف ينتهي.
أطلب من المرأة التي أشبهها أن تقول لي إن ولادتي في هذا الجزء من العالم مجرّد حلم مزعج. "لِمَ ما ولدتُ أوروبية؟" كنت أسأل أمي أيام المعارك في بيروت. "هل سنعود إلى بيروت يوم الأحد"؟ سألت المرأة التي أشبهها. لكنها لا تجيب. تفضّل أن تترك الأمور معلّقة حتى تقرّر لون المفاجأة، أسود أم أبيض. ربما لن نعود، ففي فضاء بيروت، ثمة أصوات جاهزة للكلام، للنباح أيضاً.
وفي غرفة نومي في بيروت أسمع الحوار الساخن الذي ربما تحدّد كمية الحقد فيه مصيرنا في "الوطن". من تلفزيون جاري الذي لا أستطيع تماماً تحديد مكان شقته، يطاردني الصوت، لكنه يطير إليّ فيطير النوم من عينيّ اللتين يسكنهما القلق.